النقد

لاتينيون وسكسونيون

أرضى أم نسخط حين تعنى الصحف السيارة بالأدب والنقد وحين تتفق مع كبار الأدباء والنقاد على أن يحرروا لها ما تحتاج اليه من الفصول فيها ؟ فى ذلك مايدعو الى الرضى من غير شك فهذه الصحف السيارة منتشرة وهى أشد انتشاراً من الكتب وأدنى الى نفوس الناس وعقولهم والى عيونهم وآذانهم من المحاضرات والأحاديث فهى اذاً تخدم الادب والنقد حين تذيع رسالتهما فى أكثر عدد ممكن من الناس وهى اذاً تخدم الناس حين تنشر فيهم الثقافة الأدبية وترفع دماءهم الى حيث يستطيعون أن يروا ويذوقوا جمال الأدب الرائع وآيات الفن الرفيع . وهى لهذا وذاك تخدم الأدباء والنقاد أنفسهم لأنها تعرفهم الى اكبر عدد ممكن من الناس فى أقطار مختلفة من الارض فترفع ذكرهم وتعلى قدرهم وتنشر دعوتهم وتكسب لهم الأنصار والمؤيدين وهى بعد هذا كله وقبل هذا كله تخدم نفسها حين تستعين بالأدباء والنقاد على كسب القراء وتستعين برضى القراء على احتكار الادباء والنقاد . كل هذا حق ولكن هناك حقا آخر يظهر أن ليس من سبيل الى الشك فيه وهو أن عناية الصحف السيارة بالأدب والنقد لا تخلو من ضرر، ومن ضرر قد لايكون قليلا . فالأدب والنقد فى حاجة الى الاناة والروية وامعان التدبر واطالة التفكير فاذا لم يظفر الأدب والنقد بهذا كله فهما عرضة للضعف والفتور وهما عرضة للتقصير والقصور وهما عرضة لتجاوز الحق والتورط فى الباطل وهما عرضة بهذا كله للاساءة الى أنفسهما وللاساءة الى الادباء وللاساءة الى القراء أنفسهم . فانما يكون الخير فى نشر الادب والنقد اذا نشرا على وجههما جميلين رفيعين منصفين متحرزين من هذه العيوب التى تفسد جمال الفنون العليا . وأظنك لا تخالفنى فى أن حياة الصحف السيارة وضروراتها وحاجتها القاهرة الى أن تظهر فى نظام وتصدر فى وقت معين وتعطى قراءها ماتعودت أن تعطيهم فى كل يوم أبعد الاشياء عن ملاءمة ما يحتاج اليه الأدب والنقد من الأناة والروية ومن التدبر واطالة التفكير . ولعلك قرأت فى بعض الكتب التى قصت علينا حياة اناتول فرانس وقصت لنا بعد موته اطرافا من من سيرته وأطواره فى حياته الادبية انه شقى بهذا ثم تعوده فسخر منه وازدرى الصحف والأدب والقراء ونفسه أيضاً وعبث بهذا كله . فكان فى بعض الاحيان من أقل الناس عناية بما يكتب للصحف وتحريا فيه للحق ولا سيما حين كان يكتب لبعض الصحف الاجنبية كان يلفق لهذه الصحف أى شىء ويضع اسمه فى آخره ويأخذ أجره على هذا التلفيق ساخراً بالصحيفة وقرائها معتزاً باسمه منتفعاً بما يقع فى يده من المال كل شهر أوكل أسبوع[1]

ويعظم على الأدب والنقد خطر ما تحتاج اليه الصحف السيارة من السرعة والنظام حين لا يكون الادباء الذين يكتبون لها فى الأدب والنقد مقصورين على أدبهم ونقدهم بل تضطرهم ظروف الحياة العامة والخاصة الى أن يتجاوزوهما فيكتبوا فى السياسة أيضا . فهذه السياسة على أنها من حيث هى شر على الادب لأنها تستغرق من جهد الأديب وميوله وعواطفه مقداراً عظيما كان ينبغى أن يخلص للادب ، يشتد شرها ويعظم لأنها تتأثر هى ايضا بحاجة الصحف الى النظام والسرعة ويطرد الاحداث السياسية وتطورها واضطرار الكاتب الى أن يتبع هذا التطور ويسايره ويكتب فى ألوانه المختلفة . فاذا أضفت الى هذا كله أن للأديب أو الناقد حياته الخاصة بقسميها المادى والمعنوى وحياته الاجتماعية التى تضطره الى أن يستقبل ويزور ويجامل ويتقبل المجاملة ، عرفت مقدار الجهد الضئيل الذى تظفر به فصول الادب والنقد فى الصحف من الادباء والنقاد .

خطرت لى كل هذه الخواطر حين قرأت فصلا قيما نشرته جريدة الجهاد الغراء لصديقى الاستاذ عباس محمود العقاد صباح الثلاثاء ١٧ يناير .

أراد الاستاذ العقاد أن ينقد كتاب الاستاذ أنطون الجميل فى شوقى شاعر الامراء . ولم أكن أشك فى أن الاستاذ سيشتد على الكتاب ومؤلفه وعلى شوقى أيضا . فمذهب الاستاذ فى الادب العصرى معروف وأقل ما يوصف به أنه بعيد كل البعد عن الاعجاب بشعر شوقى وعن الاقرار للذين يعجبون بهذا الشعر . وقد أشار ك

[1] انظر كتاب Anatole France en pantoulles بالم سكربيه بردسون ص ٢١٨

الاستاذ فى كثير جدا من آرائه فى شوقى والمعجبين بهما . ولكن الشيء الذى أخالف فيه الاستاذ أشد الخلاف . والذى أكتب من أجله هذا الفصل هو هذه المقدمة التى بسطها بين يدى نقده لكتاب الاستاذ أنطون الجميل . وعرض فيها لما سماه نقد اللاتينيين ونقد الكسونيين . وأحب ألا يغضب الاستاذ الناقد اذا اصطنعت الصراحة فى بسط رأيى فى هذا الفصل فلعله يوافقنى على أنه فى حقيقة الامر غير راض عن الكتاب ولا مؤمن ولكنه أراد أن يكون ناقدا مجاملا لبقا فاستعار من اللاتينيين ما يسيبهم به من المجاملة واللياقة فى النقد لم يرد أن يصارح الأستاذ أنطون الجميل بأن كتابه لا يرضيه من كل وجه لأنه حريص على مقدار ولو محدود من المجاملة بين الزملاء . ولم يرد أن يعيد على الناس حديثه فى شوقى وشعره لان شوقى قدمات منذ وقت قصير والنظم الاجتماعية تقضى بشيء من المجاملة للموتى وللذين رزئوا فيهم أشهرا على أقل تقدير . لم يرد هذا ولا ذاك . ولم يكن يستطيع أن يهمل كتاب الاستاذ انطون الجميل فضلا عن أن يقرظه تقريظا خالصا لان فى هذا أو ذاك ظلما لرأيه وكتمانا لما يعتقد أنه الحق فذلك فى نقده هذه الطريقة الغريبة التى لا تخلو من التواء . اعتذر للاستاذ انطون الجميل بثقافته اللاتينية وأخذه المذهب اللاتينى فى النقد عما تورط فيه من خطأ بين وحكم غير مستقيم على شعر شوقى . ولست أدرى اظفر الاستاذ الناقد بارضاء الاستاذ انطون الجميل أم لم يظفر ؟ أوفق الى مجاملته أم لم يوفق ؟ أوفق الى مجاملة شوقى والذين رزئوا فيه أم أخطأه هذا التوفيق ؟ لست أدرى ولكنى أعلم علم اليقين أنه ظلم الثقافة اللاتينية وظلم النقد اللاتينى وظلم قراءه جميعا وأظن أن ارضاء الاستاذ انطون الجميل أو مجاملته أهون على الاستاذ الناقد وأهون على الاستاذ الجميل نفسه من ظلم العلم والأدب والقراء جميعا .

وأغرب ما فى هذا الفصل الذى كتبه الاستاذ الناقد تناقض لست أدرى كيف تورط فيه . وهو نيا أعلم من أشد الكتاب المعاصرين فى الأدب استقامة فى الحكم وايثارا للقصد وحرصا على الاصابة فى التفكير . بدأ الاستاذ فصله بأن من العسير جدا أن يوفق الناس الى الحق حين يحسنون أحكامهم على الأمم والشعوب . وعلل ذلك تعليلا حسنا مستقيما ولكنه لم يلبث أن اتخذ لنفسه وسيلة للحكم العام على الأمم والشعوب . بل على ماهو أعم من الأمم والشعوب على الاجناس . فزعم أولا ان للاتينيين مذهبا فى النقد وان للكسونيين مذهبا آخر وأن هذين المذهبين يختلفان فيما بينهما أشد الاختلاف . وزعم بعد ذلك أن أخص ما يمتاز به المذهب اللاتينى « الاناقة » . وأخص ما يمتاز به المذهب الكسونى « البساطة » أو « الفطرة » . وفسر هذا بانك اذا قرأت الناقد الفرنسى رأيت رجلا أنيقا لبقا يتقدم فى أحد الصالونات كاتبه الذى ينقده على الاوضاع الاجتماعية المألوفة مجاملا متكلفا وقد يرمى ايماءا خفيفا الى بعض العيوب ولكن على سبيل النكتة أو على سبيل الحيلة فى التماس الدفاع عن هذا الكاتب الذى ينقده أو الرجل الذى يقدمه الى الصالون . أما الناقد الكسونى فهو لا يحفل بالاوضاع الاجتماعية . وانما يهجم بك فورا على الحياة الفردية على الحقيقة الانسانية ، على الرجل من حيث هو رجل لا من حيث هو فرد من جماعة . ومعنى هذا ان نقد اللاتينيين سطحى مخالف لأصول العلم وان نقد الكسونيين هو النقد العلمى الصحيح الذى تجد فيه الفائدة وتجد فيه الغناء . وأنا احب أن يعذرنى الأستاذ الناقد اذا قلت له فى صراحة انى كنت انتظر منه كل شيء الا التورط فى هذا الخطأ العارخ والظلم المبين . فليس من الحق بوجه من الوجوه ان الاختلاف بين النقاد اللاتينيين والكسونيين عظيم الى هذا الحد الذى يتصوره الاستاذ . فليس هناك نقد لاتينى ونقد كسونى ، وانما هناك نقد فحسب . نقد يعتمد على هذا الذوق الفنى العالى الذى أحدثته الثقافة اليونانية اللاتينية وورثته عنهما الأمم الحديثة على اختلاف أجناسها وبيئاتها . فكل النقاد من الفرنسيين والايطاليين والالمانيين والانجليز قد قرأوا آيات البيان اليونانى واللاتينى وذاقوا آيات الفن اليونانى والرومانى وكونوا لأنفسهم أو كونت لهم هذه الثقافة ذوقا عاما مشتركا بينهم جميعا يختلف فى ظاهره ولكنه لا يختلف فى جوهره لأن هذا الجوهر واحد مستمد من هوميروس وبندار وسوفوكل وارستوفان وافلاطون وسيسيرون وتاسيت ومن اليهم . نعم وهذا النقد الحديث يعتمد على أصول أخرى غير الذوق ، أصول تشبه العلم أو تحاول أن تكون علما . وضعها ارسطاطاليس ومن جاء بعده من نقاد اليونان والرومان وعمروها علم البيان . يعتمد النقد الحديث عند الامم الاوربية مهما تختلف اجناسها على هذين الاصلين : الذوق الذى تكونه الثقافة اليونانية اللاتينية ، والعلم الذى وضعه ارسطاطاليس وأصحابه . وللاستاذ أن يدرس على مهل وفى أناة وروية من شاء من النقاد المحدثين فى أى أمة من الامم الأوروبية فسيرى أن هؤلاء النقاد جميعا يتفقون فى أن نقدهم يقوم على هذين الاصلين اللذين أشرت اليهما . فاذا اختلفوا بعد ذلك فانما يختلفون فى الاشكال والصور باختلاف أمزجتهم الخاصة وباختلاف البيئات التى يعيشون فيها ويكتبون لها

عسير جدا أن يقال اذا إن هناك نقدا لاتينيا ونقدا كسونيا وأن هذين النقدين يختلفان فى الجوهر والطبيعة ، ثم اعتذر الى الاستاذ

بعد هذا من أني لا أستطيع ولا أظن ان أحداً يستطيع أن يقره على رأيه في النقد اللاتيني ، بل أنا لا أقضي العجب من تورط الاستاذ في اعلان هذا الرأي الغريب فليس من الحق أن النقد اللاتيني سطحي وليس من الحق أن هذا النقد يعتمد على الاوضاع الاجتماعية ويهمل الانسان من حيث هو انسان . هذا كلام لا يمكن أن يقبل مع أن من الاشياء المقررة الى يتلقاها التلميذ في المدارس أن قوام الادب الفرنسي الكلاسيك انما هو بالضبط : الماء هذه الفروق والاوضاع الاجتماعية التي تمتاز بها الأمم والشعوب فيما بينها بل التي تمتاز بها البيئات المختلفة في أمة بعينها والاتجاه الى الانسان من حيث هو انسان الى هذا القدر المشترك بين الناس جميعا من العقل والشعور . على هذه القاعدة يقوم الأدب الفرنسي الكلاسيك كما يقوم عليها الادب اليوناني القديم . والأدب كله على ما فيه من شعر ونثر ونقد ، فكيف يقال في أدب يقوم على هذا الأصل انه سطحي يقوم على الظواهر والاوضاع الاجتماعية .

ولأدع الادب بعامة ولأتحدث عن النقد وحده ولن أتحدث الاستاذ عن نقد بوالو وفولتير وغيرهما من النقاد الذين عاشوا قبل الثورة فان حديث هؤلاء يطول ، وانما أتحدث الى الاستاذ عن النقد الفرنسي في القرن الماضي ، واسأله كيف يستطيع أن يقول ان هذا النقد سطحي يعتمد على « الاناقة » و« اللياقة » والاوضاع الاجتماعية ويهمل الحقيقة الانسانية البسيطة ؟ ألم يقرأ سانت بوف ؟ ان قراءة فصل واحد لهذا الكاتب الذي ملأ الدنيا نقداً لانه أنفق في النقد صفوة حياته تنبئ الاستاذ ومن هو أقل من الاستاذ جداً الماماً بالادب والنقد بأن سانت بوف كان أبعد الناس عن أن يكون رجلا من رجال الصالونات يقدم الكتاب والشعراء الى الناس في أناقة ولياقة وظرف ومجاملة . ولعل الاستاذ يعلم أن أهم ما أخذه سانت بوف من العيب انما هو تعمقه أسرار الناس وبحثه عن دخائلهم وتتبعه لحياتهم الفردية فما ينبغي أن يعرف وما ينبغي أن يجهل ، وعرضه هذا كله على الناس لأنه كان يرى أن فهم الادب رهين بفهم الشخصية الفردية للادباء الذين ينتجونه . ولو قد وقع شوقي رحمه الله بين يدي سانت بوف كما وقع لامرتين لقرأ الاستاذ العقاد في نقد شوقي صفحا ترضيه كل الرضى وتخالف كل المخالفة ماقرأه الاستاذ في كتاب صديقنا انطون الجميل .

لم يكن سانت بوف رجل صالونات وانما كان يغشى الصالونات فيرى ما يحدث فيها ويتخذه وسيلة لتعرف ما يقع من وراء الاستار . كان أقل الناس اعتدادا بما يتحدث به الادباء عن أنفسهم وبهذه الصور الخلابة التي يعطونها لحياتهم فما يفشون من شعر أو نثر ، وكان يبلغ بذلك أقصى القسوة . فليقرأ الاستاذ ان اراد أحاديث الاثنين وليقرأ الصور وليقرأ كتابه عن شاتوبريان وأصحابه وليقرأ كتابه عن بورويال . وبعد ؟ ماذا يقول الاستاذ عنه ؟ أكان صاحب أناقة ولياقة واعتماد على الاوضاع الاجتماعية وهو الذي أنفق جهداً عنيفا ليقيم النقد الادبي على أساس من العلم ؟ وقد قرأ الاستاذ من غير شك لا أقول كتبه في نقد القرسيين بل أقول كتابه في تاريخ الأدب الانجليزي .

زعموا أن بشاراً سئل عن حرير والفرزدق أيهما أشعر ؟ فقضل حريرا وقال فيما قال ان الوراد امرأة الفرزدق ماتت فكادت تموت برثاء حرير لامرأته :

لولا الحياء لعادني استعبار ولزرت قبرك والحبيب يزار

فليسمح لي الاستاذ أن اذكره بأن الانجليز أنفسهم لا يزالون يعتمدون الى الآن على كتاب تين في تاريخ الآداب الانجليزية ومع ذلك فليس أدبهم في حاجة الى من يؤرخه من الاجانب .

وبرونتير ماذا يقول فيه الاستاذ ؟ أكان صاحب أناقة ولياقة وظرف ومجاملات وهو أول من حاول أن يقيم النقد الادبي على مذهب داروين في تطور الانواع وفي النشوء والارتقاء . وأميل فاجيه ولنسوف وبيديه وجول لمتر وانا تول فرانس وبول بورجيه وبول سودي والنقاد الذين لا يزالون يملؤون الصحف والمجلات الكبرى في فرنسا نقدا في الادب والفن ، ما بال الاستاذ لا يقرؤهم ليتبين أحق أن النقد اللاتيني يعتمد على الاناقة واللياقة والاوضاع الاجتماعية والتماس النكتة .

لقد فرغت الآن من قراءة فصل للكاتب الفرنسي مارسل دوشومان في مجلة العالمين التي صدرت في أول يناير لو قرأه الاستاذ لعرف أن النقد الفرنسي أبعد ما يكون النقد عن لمو الصالونات وظرفها . في هذا الفصل يحاول الكاتب أن يهدم اسطورة آمن بها الادباء جميعا عن حياة شاتوبريان كانت تصور دعابته ولهوه وكان هو قد انتهى في آخر حياته الى تصديقها والتخييل الى الناس أنها قد وقعت بالفعل فاذا الكاتب يثبت بالادلة القاطعة ان هذه الاسطورة لا تستند على أساس ويعتذر الى القراء لأنه أضاع عليهم قصة غرامية كانوا يجدون فيها لذة وجمالا . كلا ليس النقد اللاتيني سطحيا ولا يستطيع من قرأ منه شيئا ذا بال أن يقول إنه سطحي بل هو مضطر الى أن يقول مع الكاتب الفرنسي برونتير ان النقد الحديث انما نشأ وترعرع وآتى أطيب الثمر واصحه وأنضجه في فرنسا وفي فرنسا وحدها .

وأنا أحب الا يظن الاستاذ العقاد اني أدافع هنا عن الثقافة اللاتينية على حساب الثقافات الاخرى . فأنا من أشد الناس اكبارا لثقافة الكتونية واعجابا بما عرفت منها . ولكني كنت وسأظل من أقل الناس حديثا عنها وحكما عليها لاني لا أحسنها وأحب ايضا الا يتقدد الاستاذ اني أكتب هذا الفصل متأثرا بالثقافة اللاتينية التي نشأت عليها كما نشأ الاستاذ انطون الجميل . فالناس جميعا يعلمون اني نشأت على الثقافة العربية الخالصة ولم أتصل بالثقافة الاوروبية الا بعد أن تقدم بي الشباب .

انما هو الحق الذي يجب أن يقال ، والعلم الذي يجب أن ينصف والقراء الذين يجب أن نجتهد في الا نقدم اليهم الا ما نثق بانه الحق الذي لا غبار عليه . والحق الذي لا غبار عليه في هذه المسألة هو أن الاستاذ العقاد تعجل وجامل فأخطأ الصواب ، وأقام أحسن الدليل على أن التعميم في الاحكام على الشعوب مزلة للاقدام وسبيل الى الظلم .

أما بعد فان لي في كتاب الاستاذ انطون الجميل رأيا ان لم يظهر في هذا العدد فسيظهر في العدد الذي يليه .